# التجديد في كتابة التاريخ العربي

## العروبة والإسلام نموذجا

**أ.د. محمد مظفر الأدهمي**

يبدأ التجديد في كتابة التاريخ العربي من خلال الارتقاء بالدراسات التاريخية من مستوى السردية والترجيحات التقليدية، إلى قراءة النص التاريخي قراءة مغايرة جديدة، تقود إلى مفاهيم تنسجم مع تطور حركة الفكر الإنساني المعاصر، دون الانقطاع عن المبادئ العربية الإسلامية التي قامت عليها حضاراتها وعطاءاتها الفكرية في العلوم المختلفة، وفق مبدأ الأصالة والتواصل وصولا إلى الحداثة والتجديد.

ولا شك أن استحضار أحداث تاريخنا المشرقة هي حالة صحية توفر للأمة العربية القدرة على التصدي والاعتزاز بالنفس، باتجاه توظيف طاقاتها نحو النهوض والتجديد؛ لأن العودة إلى التاريخ المشرق واستحضاره ليست حالة سلفية أو غيبية، وإنما هي كتابة التاريخ برؤية عربية ترتبط بواقع الأمة وتطوره التاريخي, ولا تمثل منهجا قسريا بعيدا عن الحقائق, خصوصا إذا كانت هذه الرؤيا نابعة من إدراك الواقع ذاته بنظرة أفقية شاملة لحركة التاريخ العربي، تراعى فيها الخصوصية الوطنية التي تنضوي تحت خيمة العروبة.

وسأناقش هنا ظاهرة سلبية في تدوين التاريخ العربي، مثالا على ضرورة التجديد في كتابته وتحليله، وهي ظاهرة تشتت كتابة التاريخ العربي الحديث لدى المؤرخين في جناحي الوطن العربي؛ مغربه ومشرقه، الذي قاد إلى اللبس في مفهوم العروبة والإسلام والربط بينهما, بحيث إن جورج انطونيوس في كتابه يقظة العرب، ومحمد عزة دروزه في كتابه نشأة الحركة العربية الحديثة, لم يشملا المغرب العربي بتلك النهضة على أساس أن اتجاهه إسلامي غير عروبي، ولا علاقه له بحركة القومية العربية. ولكن هذا المنهج لا ينسجم ولا يتطابق مع وقائع حركة تاريخ الوطن العربي الشاملة, فالمواجهة بعد سقوط الأندلس كانت في المغرب العربي الكبير، مع الغرب الأوربي الذي تلبس بلباس الدين المسيحي رداء لتجميع الأوربيين؛ من أجل غزو الجناح الغربي من الوطن العربي, فكان لا بد من التأكيد على الجهاد والإسلام في التصدي لذلك التحدي. أما الجناح الشرقي فكان في المرحلة نفسها من التاريخ الحديث يواجه تحديا أجنبيا

عنصريا تركيا وفارسيا باسم الإسلام, وكان لا بد من التأكيد على العروبة لجمع الشمل والتصدي لحماية الهوية العربية الإسلامية. فالهجمة على الوطن العربي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كانت شاملة، والتصدي والمقاومة كانت شاملة أيضا، لكن الأسلوب والتعبير اختلفا كل حسب واقعه وظروفه وخصوصيته, ومع ذلك لم يجد العرب في المشرق في العروبة حياة بدون الإسلام ومبادئه, ولم يفكر العرب في المغرب بالإسلام مجردا عن العروبة, وهو ليس مجرد تنظير فالأمثلة الأدبية والفكرية والسياسية كثيرة في هذا المجال, إذ كان هناك تناغم فكري لدى المفكرين والأدباء والشعراء والمقاومين العرب على امتداد الوطن العربي؛ لأنهم كانوا يعيشون حالة واحدة كالتي نعيشها اليوم، فعبروا عنها بالفكر العروبي الإسلامي والكفاح المسلح, والأمثلة على ذلك كثيرة وواضحة, وعلى سبيل المثال يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه الموسوم منطلقات فكرية: " إن الجهاد الذي أعلنه الأمير عبد القادر مثلاً، لم يكن قاصراً على المفهوم الديني وحده، وإنما كان يعني بالدرجة الأولى الدفاع عن الوطن والقومية" ( اللغة والحضارة والمستقبل ) . ويضيف: "فإذا تذكرنا حالة الوطن العربي خلال النصف الأول من القرن الماضي، أي القرن التاسع عشر، نجد أن الأمير بحق رائد من رواد القومية العربية بمفهومها الحديث، فقد كان يدافع عن فكرة الحرية وعن أرض كانت وما تزال جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي".

ويورد أنور الجندي في كتابه الموسوم، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا ، أن إبراهيم غافر يقول: إن الإسلام والعروبة هما العاملان الأساسيان اللذان أحييا المغرب وأخرجاه من ظلمات الاستعمار اللاتيني، وساعداه على تكوين وحدته اللغوية والدينية والسياسية". ويضيف أحمد توفيق المديني: "إن المغرب العربي لا يفرق بين العروبة والإسلام فالاثنان مفهومهما واحد ، لا يكون المسلم إلا عربياً ولا يكون العربي إلا مسلماً ولنا نحو العربية والعروبة نفس التقديس الذي لنا نحو الإسلام".

ومن هذا نجد أن الذين اعتبروا النهضة القومية العربية في المشرق بعيدة عن الإسلام كانوا مخطئين، كذلك فإن الذين اعتبروا الكفاح المسلح للمغرب العربي دينياً صرفا بعيدا عن العروبة، هم مخطئون أيضاً. لقد نسي هؤلاء المؤرخون والكتاب أنه حينما كان عرب المشرق يدافعون عن وجودهم العربي الإسلامي من خلال الشعر والكتابة والتنظيمات السياسية التي قادت

إلى الثورة العربية الكبرى عام 1916, كان المغرب العربي الكبير يسطر بدماء أبنائه ملحمة الدفاع عن وجوده العربي الإسلامي ضد الغزاة الأوروبيين, ويعبر عن ذاته شعرا وكتابة بالمفاهيم العروبية نفسها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هؤلاء المؤرخين قد نسوا أيضاً أن الخليج العربي هو جزء من المشرق العربي وكان يدافع بالسلاح عن وجوده القومي العربي الإسلامي، ضد البرتغاليين والهولنديين والبريطانيين الغزاة. ولا شك أن هذا القصور ناتج عن غياب المنهج القومي في كتابة التاريخ العربي، ذلك المنهج الذي يأخذ بعين الاعتبار حركة التاريخ ضمن الحدود الطبيعية للوطن العربي. ولذلك لا بد من العمل من أجل الوصول إلى مبادئ عامة تقوم عليها المدرسة العربية في البحث التاريخي ومناهج التاريخ الدراسية لتأمين الفكر السليم للأجيال القادمة، وبما يؤمن حصانتهم من الاتجاهات التي تتقاطع مع مستقبل الأمة العربية ومشروعها الحضاري في نهوضها من جديد.